الحاصلة المبنية على العدل لا يتأتى أن تجرى فى العمل الا اذا جعلت هذه المصالح قيد النظر

الهجرة الى مصر (١)

اذا كان أصلى من تراب فكلها بلادى وكل العالمين أقاربى

دحا الله الارض ليعيش عليها البشر ويتناسلوا فيها فيعمروها ويحيوا مواتها ويسيطروا على المخلوقات كلها ، فالارض هى المنزل العام يجلس أهله فى أى ناحية منه أحبوها وراقهم . ويتنقلون في بقاعها وأصقاعها ، ووهادها ونجادها ، وسهلها وحزنها ، وبحرها وبرها ، على حسب ما تقضى أحوال الصحة ، وطبائع الاجسام ، وخواص النفوس .

فقد هاجر الفينيقيون قديماً وأقاموا قرطجنة ، عمروها وغيرها من شواطىء البحر الرومى ، وهاجر القوط من جرمانيا الى جنوبى أوربا وداهموا المملكة الرومانية ، وهاجر الروم من بلادهم الى شواطىء البحر المتوسط وجزره وشواطىء البحر الاسود وبلاده وعمروها . وكثير من الامم أمثالهم غادروا مساقط رؤوسهم ، واتخذوا لهم بلاداً ثانية استعمروها .

وهاجرت فى العهد الحديث أمم كثيرة ، وأهم هجرة وقعت هجرة الاوربيين الى أميركا ، عمروها بجنسهم الابيض بعد أن كانت خربة بالجنس الاسود . وكذلك هجرة الهولانديين الى جنوبى أفريقية وهجرة الروس الى سيبيريا ، وهجرة القافقاسيين والجراكسة الى البلاد العثمانية ، وهجرة الاسرائيليين من بلاد روسيا ، وهجرة المسلمين الروسيين الى أميركا وغيرهم .

وللعرب حظ وافر من الهجرة والتنقل فى الجاهلية والاسلام بل ان الهجرة من طبيعة جزيرتهم يعمدون اليها طلباً للكلأ والمراعى ، أو للاتجار بنتائج مواشيهم وحاصلاتها ، وأول هجرة فى الاسلام كانت هجرة عشرة من الصحابة وأربع نسوة وقيل أكثر أمرهم الرسول بالهجرة الى الحبشة لما رأى ما يصيبهم من البلاء قائلا :

(١) نشرت فى المجلد الثانى من مجلة المقتبس (١٣٢٥ — ١٩٠٧)

لو خرجتم الى أرض الحبشة فان فيها ملكا لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه فخرجوا ثم عادوا بعد سنين ، وهكذا هاجرت العرب الى فارس ومصر والشام وأفريقية والاندلس والسند وكشغر لما فتحت . ولولا إقدامهم على الهجرة ما رأينا الاسلام منتشراً فى قلب آسيا وأفريقية

ولا نزال الى اليوم نشهد أثراً من آثار حب العرب للهجرة وقد زادها اليوم قرب المواصلات وسهولة السفر . نرى أهل حضرموت فى جنوبى الجزيرة يهاجرون الى حيدر آباد الدكن الهندية فيكون معظم جيش البلاد منهم ، ونراهم يهاجرون الى جاوة فيكثر فيها سوادهم ويعتنى بعض أفرادهم ، ونرى النجديين يهاجرون الى الهند فى التجارة ثم يستوطنونها ويصبحون فيها أصحاب كلمة ونفوذ. ونشهد السوريين يهاجرون الى أميركا وأفريقية فيرتاشون ويتأثلون .

وانهيال السورى على هذا القطر (المصرى) خاصة قديم جداً يصعب تعيين زمنه لاتصاله ببلاد الشام براً وبحراً ، ولم تكن القوافل فى الاسلام تنقطع فى البر كما ان المراكب لم تكن تنقطع عن السفر فى البحر ، ولم تبرح بلاد الشام مصيف مصر واحداهما مكملة لعمران جارتها . وقد وصف ابن فضل الله العمرى فى التعريف بالمصطلح الشريف طريق القوافل بين القطرين كما عقد القلقشندى في صبح الاعشى فصلا فى مراكب الثلج الواصل من البلاد الشامية الى الملوك بالديار المصرية . ومصر ما برحت كما وصفها ابن خلدون فى القرن الثامن (بستان العالم ، ومحشر الامم ، ومدرج الذر من البشر) .

نعم هى محشر الامم ولا سيما الامم المجاورة لها من البر أو المناوحة لها من سيف البحر ، وذلك لان عمرانها طبيعى مستمر فى معظم أدوارها ، فلا عجب اذا كانت مهاجر الامم من عرب وعجم ، قبل أن تكون نقطة الاتصال بين قارات أوربا وأفريقية وآسيا بفتح ترعة السويس ، فما بالك بعد أن تم لها ذلك ، فمصر والحالة هذه مقصودة من أقطار الارض أكثر مما يقصد أهلها سائر الاقطار ، والامة التى تكثر فى الغالب خيرات بلادها لا يهون عليها مفادرتها ، وطلب الحاجيات هو الباعث الاقوى على المهاجرة ، فاذا كفيها المرء يصاب بالوفاء وضعف العزائم .

وما فتىء السوريون والروم والترك والمغاربة مذ كانت حكوماتهم تتغلب على مصر ينزلون بلاد النيل ، فالروم حكموها زمناً طويلا وكذلك الترك والعرب والجراكسة ، فكان من هذه العناصر أن نزلتها بكثرة وأصبح أكثرهم فيها عمالا وحكاماً وقضاة ، ورؤساء جند وعلماء ، وأرباب صنائع وتجارة ، ولم تكثر هجرة الاوربيين اليها الا عقيب الاحتلال الفرنسوى عند ما بدأ الفرنسيس والطليان والمجر وغيرهم من أمم الغرب يهبطون اليها ، وقد كثر سوادهم على عهد الخديوى اسماعيل لانه فتح أمامهم طرق الهجرة ، وأحسن معاملتهم ووفر لهم المغانم وطرق الكسب .

ولما قبض رجال الاحتلال من الانكليز على أزمة الاعمال أخذ الناس يفدون على مصر من كل فج عميق ، حتى انك لتجد فيها الآن من جميع الشعوب واللغات أناساً أسسوا فيها الاعمال التجارية والزراعية والمالية والعلمية ، وكثير منهم اغتنوا من خيراتها بفضل كدهم ، وقد قدرت ثروة السوريين فيها بخمسين مليون جنيه أى بعشر ثروة القطر وهكذا سائر الامم ولا سيما الروم والطليان والفرنسيس فان فيها من هذه الاجناس ألوفاً اغتنوا من خيراتها واتخذوها دار هجرتهم ووطناً ثانياً لهم ، وحال مصر اليوم مع المهاجرين اليها يختلف عن حالها مع أمثالهم فى القرن الماضى لان ثقة الامم تزداد بها الحين بعد الآخر ولان الاساس الذى قامت عليه حضارتها اليوم أساس مالى زراعى . خصوصاً وقد ظهرت الآن نتائج ما تعب القابضون على أزمة سياستها سنين فى تأسيسه ، واشتهر ذلك عند الخاص والعام فى الاقطار النائية بما يتصل بهم من أخبارها وأخبار من يفتنون من المهاجرين اليها ممن توفرت لديهم رؤوس أموال أو كانوا من أرباب العقل والعمل فكانت مصر ميداناً لظهور آثارها ، وربما لا يذكر الناس الا من نجحوا وقلما يذكرون من أخفقوا ، عادة فى البشر ولعلها من موجبات أقوامهم على الكسب والكدح فى هذه الدار .

ولقد ساعد على كثرة الهجرة اليها حال بعض البلاد المجاورة لها من حيث اجتماعها ومادتها . فترى سكان جنوبى ايطاليا القاحلة يهاجرون اليها أكثر من القاطنين فى الشمال منها لان شمالى ايطاليا مخصب وأهلها مكتفون بما تجود به عليهم

أرضهم وسماؤهم ، وكذلك تكثر اليها هجرة سكان جزائر البحر الرومى ولاسيما بلاد اليونان الجديدة وأهل سواحل الشام وجبالها .

هذه مصر من حيث مهاجر الامم فهى دولية كما يقول الساسة أو مشتركة بين أجناس وأديان شتى ، والتاريخ يشهد انها كانت رحبة الصدر بالوافدين عليها فى كل العصور ، للين عريكة أهلها ، ولم يحدث هذا التميز بين سكانها الا عندما أراد مهاجرو الافرنجة أن يستطيلوا على أهلها فاحدثوا لهم ما يقال له «الامتيازات الاجنبية» التى تخولهم من الحقوق ما ليس للوطنى مثله ثم كثر توارد الاخلاط عليها ولم يكن الوافدون اليها على غرار واحد بل كان منهم المنورون العالمون وهم أفراد ، ومنهم المتعلمون المهذبون وهم أكثر ، ومنهم العامة الاميون وهم السواد الاعظم ، ومعظمهم طلاب رزق وسوقة نازعوا ابن البلاد وربما غلبوه لان من جاء فى طلب غرض يحتال للوصول اليه ، والغريب فى الغالب يكون اجرأ وانشط من الاصيل لان الغربة فى ذاتها امارة من امارات النشاط

وطول مقام المرء فى الحى مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد

والامثلة كثيرة فى هذا الباب من القديم والحديث فليس للوافد ما للقاعد من الخمول والاتكال ويكفى ان فى لندرا لهذا العهد وهى مهد الصناعات والارتقاء زهاء مائتى ألف رجل من رجال الالمان استولوا على أعمالها المالية واستأثروا بها دون ابن البلاد المتعلم المنور الذى لا يقل عنه فى مواهبه . هذا فى عاصمة انكلترا فما الحال بمصر وأكثر الوافدين اليها هم من الشعوب القوية ومن أهل البلاد الباردة التى تبعث النشاط فى قلوب أبنائها وأجسامهم وعقولهم فيتخذون عدتهم استعدادهم . وكدهم رأس مالهم . وعتادهم وذخرهم قصدهم واقتصادهم . على حين قد أتت على الوطنى أزمان من الفوضى ضعفت بها قواه فاصبح لا يقوى على العمل الا اذا عوده زمناً ولقنه بالتعليم والتربية ، وقد فجأته الثروة والحرية مفاجأة بهرته وحيرته ثم ان ابن البلاد فى الغالب لا يسف الى المكاسب التى يتنازل اليها الغريب فالاول يدل بأرومته أو يعتز بأمته ، والثانى يذل فى سد حاجته ، ونيل بغيته .

ولما رأت الحكومة المصرية على عهد الوزارة الرياضية أن الوطنى يكاد يفنى

فى الدخيل سنت لائحة صعبت فيها على النازل فى مصر أسباب الحصول على حقوق الوطنى الا بعد مقامه خمس عشرة سنة واشماره الحكومة بعزمه على تغيير جنسيته قبل حلول الوقت المعين بخمس سنين . فكانت هذه اللائحة غريبة فى بابها منعت بعض الطراء على القطر من ولوج باب الاستخدام فى دواوين الحكومة وحظرت عليهم تعاطى الاعمال الادارية والسياسية الا انها صرفت وجهتهم الى اتخاذ الاعمال التجارية والزراعية والمالية والعلمية الحرة ، فافلحوا أكثر مما لو كانوا حصروا كدهم فى الوظائف الاتكالية ولم تحق عليهم كلمة « مصر للمصريين » ومن هنا نشأ بغض كثير من المصريين للغرباء . كان السبب فى ذلك أولا منافسة هؤلاء لأبناء البلاد فى احتياز الوظائف ، وساعد عليها ما ألفته بعض الجرائد المسموعة الكلمة من عبارات التفرقة ، وهناك أسباب أخرى قواها أرباب الاهواء والغايات فانتقلت بالتقليد الى العامة ومن نحا منحاهم من الخاصة .

وليست الشكوى التى يشكوها بعض الوطنيين من الوافدين فى محلها كلها لان من اغتنى بكده أو بطرق غير شريفة فانما غنمه له وغرمه عليه . ولو تسنى لابن البلاد أن يعمل عمله ما تأخر ، ويا ليت خاصة هذه البلاد يسعون الى نزع هذه الاوهام من عقول العامة حتى لا يبغضوا غيرهم بسبب وبلا سبب ويمتزج بعضهم مع بعض لتحيل بوتقة مصر ذاك الدخيل الى المعدن الذى تريد أن يكونوا كلهم عليه فقد ثبت أن هذه البوتقة المصرية أحالت اليها فيما مضى التركى والالبانى والجركسى والكردى والحجازى واليمانى والعراقى والشامى والمغربى والسودانى والرومى والفارسى فأتى منهم بعد مقامهم قليلا فى هذا الوادى مصريون يغارون على مصلحة مصر وكثير منهم نفعوها وخدموها بعقولهم وأيديهم أكثر من خدمة أبنائها لها تحت أسم مصريين . وما كانت قط بقعة من الارض معلومة الحدود والمساحة وقفا على جنس خاص من البشر لا ينازعها فيه منازع تسرح وتمرح فيها ما شاءت ، فالارض أرض الله ، والناس عباد الله ، وما أحلى بيت البحترى فى هذا المعنى :

ولا تقل أمم شتى ولا فرق فالارض من تربة والناس من رجل

وكل من نظر فى نهوض الامم لا يعتم أن يرى بأن كل أمة ربيت على كره

غيرها وتجافت عن الاختلاط به وحسن الانتفاع منه تجنى من الخسارة أكثر من الربح .

ولقد كانت بغداد من أكبر أمثلة التسامح فى البلاد الاسلامية رفعت مقام الغريب وأحسنت الاستفادة منه فكان يعد بغدادياً كل من دخل بغداد ، تساوى فى ذلك عجميها وديلميها وعربيها وتركيها ، ونسطوريها ورومیها ومجوسيها ومسلمها ، فجمع العدل من شملهم ، وآخت الراحة بينهم ، وعد سواء فى النسبة اليها من نزلها اليوم ومن نزلها منذ قرن ، وقد أعان على تكوين هذا المزيج انتفاء الجنسية فى الاسلام ، ورفق المسلمين باهل ذمتهم ، ولولا ذلك ما قامت تلك الحضارة التى نسبت للمسلمين العرب مع أن أثرهم فيها كأثر غيرهم من الأجناس والأديان ، ولكن العمل مشترك وهو منسوب لصاحب البيت ، كالجنود يشقون فى الحرب ثم ينسب النصر لقائدهم .

وانا لا نزال نقول ان من حظ مصر أن تكون البلاد المجاورة لها محتاجة اليها حتى أشبهت فاس فى القرون الوسطى لما تواتر عيث الاعراب على القيروان واضطربت قرطبة باختلاف بنى أمية بعد موت محمد بن أبى عامر وابنه ، فرحل من قرطبة ومن القيروان من كان فيها من العلماء والفضلاء من كل طبقة فنزل أكثرهم مدينة فاس . قال صاحب المعجب ، فى الثلث الاول من المئة السابعة : ان فاس اليوم على غاية الحضارة ، وأهلها فى غاية الكيس ونهاية الظرف ، ولغتهم أفصح اللغات فى ذلك الاقليم ، وما زلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ما قالوا ذلك وقال : ان القيروان كانت منذ الفتح الى أن خربها الأعراب دار العلم بالمغرب اليها ينسب أكابر علمائه واليها كانت رحلة أهله فى طلب العلم فلما استولى عليها الخراب تفرق أهلها فى كل وجه فمنهم من قصد مصر ومنهم من قصد صقلية والاندلس وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب فنزلوا مدينة فاس .

قصدوا فاس كما قصد الاندلسيون بلاد مراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والشام لما أذن الله بانقراض دولتهم فعدوا من أهلها بل كما رحل الايطالى والالمانى والاسبانى والانكليزى والفرنسوى الى أميركا لما ضاقت سبل الرزق فى وجوههم فعدوا أميركيين وأنشأوا يخدمون أميركا أكثر من خدمتهم لبلادهم

حتى اذا تناسلوا فيها جاء أولادهم أميركيين صرفا . وكلما ارتقت الامم تتطال الى ادماج غيرها فى مجموعها ، والأمم الافرنجية اليوم أكثر تسامحا فى هذا المعنى من الأمم الشرقية كما يظهر بالاستقراء .

قال ابن حزم الاندلسى : ان جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقين دون مخاشاة أحد بل قد تيقنا اجماعهم على ذلك متفقون على أن ينسبوا الرجل الى مكان هجرته التى استقر بها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكناها الى أن مات فان ذكروا الكوفيين من الصحابة رضى الله عنهم صدروا بعلى وابن مسعود وحذيفة رضى الله عنهم وانما سكن على الكوفة خمسة أعوام وأشهراً (قال ابن حجر صوابه أربعة أعوام) وقد بقى ٥٨ عاما وأشهراً بمكة والمدينة شرفها الله تعالى ، وكذلك أيضاً أكثر أعمار من ذكرنا وان ذكروا البصريين بدأوا بعمران ابن حصين وأنس بن مالك وهشام بن عامر وأبي بكرة وهؤلاء مواليهم وعامة زمن أكثرهم وأكثر مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف وجمهرة أعمارهم خلت هنالك وان ذكروا الشاميين نوهوا بعبادة بن الصامت وأبى الدرداء وأبى عبيدة ابن الجراح ومعاذ ومعاوية والامر فى هؤلاء كالأمر فيمن قبلهم وكذلك فى المصريين عمرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوى وفى المكيين عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير والحكم فى هؤلاء كالحكم فيمن قصصنا فيمن هاجر الينا من سائر البلاد فنحن أحق به وهو منا بحكم جميع أولى الامر منا الذين اجماعهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترافه ، ومن هاجر منا الى غيرنا ملاحظ لنا فيه ، والمكان الذى اختاره أسعد به .

التفاضل بالبلاد

ألف الناس التمجد بالبلاد والآباء والأجداد والمال والبنين عادة فى البشر تكثر فيهم بكثرة الجهل ، وتقل بانتشار العلم . ولقد كان لأهل هذه البلاد من هذا التمجد الباطل قسط وافر ساعد على اغمائه فى النفوس جهل بعض ولاة

الأمر السالفين واتخاذ هذه الأضاليل حجة على من يريدون مناوأته وارجاعه إلى الطاعة . لطالما خطب الحجاج فى أهل العراق ووصفهم بقوله أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق وأطلق عليهم من قبله ومن بعده من أمراء ذاك القطر مثل تلك الصفات . وما كانت هذه المعاملة لأهل العراق الاسياسية ولو كانت أخلاقهم كذلك وكان فيمن ولى رقابهم علم وشفقة لسعى السعي الحثيث إلى نزعها منهم بحكم العادة والاسوة والقدوة ، ولعل هذه الدعوة كانت جملة فلسفة أولئك الحكام وبيت قصيد حملهم على رقاب الناس ، وكان من أهل الشام أن وسمهم أعداؤهم بكل كبيرة وألصقوا فيهم باطل التهمات . وهكذا الحال بين الشام والحجاز والشام والعراق .

فان معظم المؤرخين والمؤلفين نبغوا فى العراق فأكثروا فى مصنفاتهم من الاحاديث الموضوعة على أهل الشام لقلة من كتب من هؤلاء ودافع عنهم . ومثل ذلك قل فى المغرب مع مصر ومصر مع الشام وفارس مع الهند وكلها فى الحقيقة سفاسف لا تساوى درهما عند المحققين ، وما البلاد فى أمر الافضلية إلا سواء لا يفضل شرق عن غرب ولا جنوب عن شمال الا بالعلم النافع والأدب الرافع والعمران والسعادة . ولذا ضل رأى من وضعوا من المتأخرين كتباً خاصة فى فضائل بلد أو قطر . وأضل منهم من وضعوا أحاديث مكذوبة على الرسول صلى الله عليه وسلم فى تفضيل مدينة أو بلد كما ضل من وضعوا الموضوعات طعناً على فئة خالفت ماهم عليه .

وبعد فالأرض كلها سواء فى هوائها ومائها ، دحاها الله ليعيش فيها البشر ويتنقلوا فى أقطارها وقد لاتختلف الاقطار المتنائية فى قوة الانبات الا قليلا فليس من العقل أن تمدح بلد لجبل فيها ، أو سهل فسيح حواليها ، أو نهر كبير يمر فى وسطها ، ولا أن تذم أخرى لحرارتها ، أو لضيق حاراتها وجاداتها .

فكانت مصر ولا تزال مثلا منذ ألوف من السنين طريدة من الارض عرفت بخصبها وغناها الطبيعى . وكانت الشام ولا تزال منذ ألوف من الأعوام مشهورة باختلاف أهويتها ، ورقة نسيمها ، وتنوع جبالها وأوديتها فما عد ذلك فضيلة للاولى على الثانية ولا للثانية على الاولى . بل حسب لها خاصية يمتاز بها كلا

القطرين بعضهما عن بعض . وقد أنصفهما فى الوصف أحد عمال الدولة وقد سئل عنهما فقال : مصر مزرعة ممرعة والشام مصيف بهيج

ان كان ماتفاخر به البلاد بعضها بعضا هذا اذا سوغنا التفاخر فبالعلم والتربية وغلبة الفضيلة والخير على طبقات الناس كلها ، لا بالماء والهواء والواحات والجبال والاودية والاشجار والأثمار وكل ما وزعته الطبيعة بين بلدان العالم فنال كل منها بحسب حالته . دخل أبو الحكم المغربى الاندلسى الحكيم المرسى مدينة دمشق فلما حل ظاهرها سير غلاماً له يبتاع لهما مايأكلانه فى يومهما وأصحبه نزراً يكفى رجلين فعاد الغلام ومعه شواء ، وفاكهة وحلواء ، وفقاع وثلج ، فنظر أبو الحكم إلى ماجاء به وقال له عند استكثاره أوجدت أحداً من معارفنا فقال لا : وانما ابتعت هذا بما كان معى وبقيت منه هذه البقية فقال أبو الحكم هذا بلد لايحل لذى عقل أن يتعداه ودخل وارتاد منزلا وسكنه وفتح دكان عطار يبيع به ويطب وأقام على ذلك إلى أن وافاه أجله

ومثل ذلك ماوقع للملك المعظم شمس الدين توران شاه أخو السلطان صلاح الدين يوسف لما تمهدت له بلاد اليمن واستقامت أمورها مل المقام بها وحن إلى الشام وفيها نشأ واشتاق إلى خيراتها والتمتع بثمراتها اذ أن اليمن محرومة ذلك . قال ابن خلكان فكتب إلى أخيه صلاح الدين يستقبل منها ويسأله الاذن له فى العود إلى الشام ويشكو حاله وما يقاسيه من عدم المرافق التى يحتاج اليها فأرسل صلاح الدين رسولا مضمون رسالته ترغيبه فى الاقامة وانها كثيرة الاموال ومملكة كبيرة . فلما سمع الرسالة قال لمتولى خزانته : احضر لنا ألف دينار فأحضرها فقال لاستاذ داره والرسول حاضر عنده : ارسل هذا الكيس إلى السوق يشترون لنا بما فيه قطعة ثلج .

فقال أستاذ الدار : يامولانا هذه بلاد اليمن من أين يكون فيها ثلج ؟ فقال : دعهم يشترون بها طبق مشمش لوزى . فقال : أين يوجد هذا النوع ههنا ؟ فجعل يعد عليه جميع أنواع فواكه دمشق وأستاذ الدار يظهر تعجبه من كلامه وكلما قال له عن نوع يقول له : يامولانا من اين يوجد هذا ههنا؟ فلما استوفى الكلام إلى آخره قال للرسول : ليت شعرى ماذا اصنع بهذه الاموال اذا لم انتفع بها

فى ملذاتى وشهواتى فان المال لا يؤكل بعينه بل الفائدة فيه انه يتوصل به الانسان الى بلوغ أغراضه .

ولعمرى هل يصح أن تجعل أمثال هذه القصص حجة فى أفضلية دمشق على غيرها من أمهات المدن حيث المعيشة غالية وهل هذا الرخص مما ينبغى أن يفاخر به وأهل الاقتصاد فى عصرنا يجعلونه اذا استحكم من بلد شؤماً عليه ويعدون البلد كل البلد الذى غلت فيه أسعار الحاجيات والكماليات وارتفعت الاجور والارتفاقات على نسبتها . والامثلة على ذلك كثيرة فانه يبلغنا لهذا العهد عن بلاد الاناضول وهبوط أسعار المأكولات فيها لقلة مايصدر عنها مالا يكاد يصدق لولا تواتره على ألسن الطارئين على ذاك الصقع فهل تفضل السكنى فيه على الروم أيلى المرتفعة أسعار الارزاق فيه . وبعد فان كان لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى فلا فضل لبلد على آخر إلا بالعلم والعمل والسعادة الحقيقية .

النزلاء المسلمون [1]

قضى الله على هذا القطر أن يكون منذ القديم مهاجراً لأمم الارض ولاسيما من الاولى قيض لهم الحكم عليه من روم وفرس وترك وجركس وكرد أو كانوا مجاورين له من شماله وجنوبه وشرقه وغربه فيأتيه بعضهم متاجراً وآخر موظفاً وفريق غازيا ، وغيره مسالماً . وتربة مصر الجيدة تبتلع من تبتلع من تلك العناصر وتحيلهم بوتقة النيل مصريين . ومنهم من يعود من حيث أتى بعد أن يقضى فى ربوعها زمناً ، وقد استفادوا منها ماديا أو معنويا .

وكان بعض تلك الاجناس اذا نزلوا العاصمة وقواعد المدن فى القطر يجتمعون فى بقعة واحدة ويؤلفون جماعة أو حزباً ويتخذون لهم حارات خاصة بهم يسكنونها ، ومحال تجمعهم وعادات يحرصون على الاحتفاظ بها والجنسية علة الضم ، أو كما قال امرؤ القيس « وكل غريب للغريب نسيب »

(١) نشرت في جريدة المؤيد يوم ٢٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٦ هـ

أما اذا نزلوا الارياف فقلما كنت ترى لهم كلمة ، فيبقون فى غمار السكان فى الغالب ويمتزجون باهلها ، فيجعل ذلك لهم فقد لغاتهم أن يكونوا لا يتكلمون العربية ، أو فقد جنسياتهم ان كانوا عربا ، وما هى الا بضع سنين حتى يصبحوا مصريين صرفاً .

والغالب أن كل فاتح يستعين بالغرباء على قيام أمره ويعتمد فى الاكثر على أناس من بنى جنسه . هكذا فعل الرومى والفارسى قبل الاسلام ، وهكذا فعل التركى والجركسى والكردى والارناؤدى بعده . وان كان الاسلام قد منع من القول بالجنسية والعصبية ، ولكن الدول تراعى فى هذا الشأن حالة الزمان والمكان . ثم ان الغالب يرى من الواجب عليه أن يقرب اليه الاقرب والاقرب ، والاقربون أولى بالمعروف .

هذا اجمال من تاريخ نزول الذين هبطوا مصر فى الادوار السالفة وانا لنرى منه اليوم مثالاً مجسما من المحتلين ، وتوسيدهم الوظائف الكبرى الرابحة الى أبناء جلدتهم ، فاذا لم يجدوا منهم من يرتضونه ، يختارون أن يوسدوها ان أمكن لرجل أوربى بدل المصرى أو العثمانى ، كما يختارون توسيدها للمسيحى أو غيره من غير أهل الاسلام

بمثل هذه الحال السياسية يحدث الخلف بين الوطنى والنزيل ، ويلتف كل فريق على فريقه ، والحكام من وراء ذلك يسرون بهذه الفرقة بين الاجناس والعناصر ما دامت القاعدة التى سارت عليها الحكومات هى « فرق تسد » ولذلك كان يزداد هذا التنافر بين الدخيل والاصيل كلما نفخ الحاكم فى ضرامه ، ويخمد كلما انقطعت عنه مادة التفريق ، وهذا ما دعا الى أن تكون لكل عنصر من النزلاء جمعياتهم الخاصة بهم ومدارسهم وكنائسهم وحاراتهم ومحالهم وأنديتهم .

لا يكاد يمضى شهر الا ويجيئنى كتاب من جماعة يطلبون الى أن أشاركهم فى جمعية سورية يريدون تأسيسها لغرض اجتماعى أو أدبى أو خيري وأن أساعدهم مساعدة أدبية بالقلم ، ان لم تتيسر لى مساعدتهم بالدينار والدرهم فاعتذر اليهم فمنهم من يقبل العذر ، ومنهم من لا يقنعه قولى ويحمله على ما يقع فى نفسه من الظنون . ومعظم هؤلاء الداعين جماعة من المسيحيين يريدون أن يكثروا بالمسلمين

سوادهم ويستعينوا بهم على غرض يرون فائدته لابناء بلادهم .

المسلمون العثمانيون أو السوريون فى مصر أفراد قلائل بالنسبة لسائر العناصر ولذلك لم ير اللورد كرومر فى كتابه «مصر الحديثة» أن يخصهم بكلمة لقلة سوادهم وبعبارة أخرى ان أكثرهم من التجار أو من السوقه لا يدخلون فى مسائل البلاد العمومية ولا يتأتى للاحتلال أن يعتمد عليهم لان الدين يمنعهم من خدمة أفكاره وهم يرون المصريين اخوانهم فى الدين والتابعية واللغة والجوار ، وهل أعظم من ذلك رابطة ؟

وما راعنى أمس الا كتاب من أحد المسلمين السوريين من تجار هذه العاصمة يقول لى انه ساع مع بعض أصحابه فى تأسيس جمعية خيرية اسلامية سورية بالقطر المصرى تساعد الفقراء السوريين المسلمين ممن لا ناصر لهم ولا ملجأ يلجأون اليه عند الشدائد وذلك لان القاء حبلهم على غاربهم مما يشين سمعتنا الادبية بين الخاص والعام ولا فرق فى ذلك بين الدمشقى والحلبى والبيروتى والطرابلسى وغيرهم لانهم كلهم أبناء طائفة واحدة وتظلهم راية واحدة . ويدور محور أعمال هذه الجمعية على مواساة الفقراء وتربية الايتام على الطرق الحديثة وادرار الارزاق على الارامل والمرضى ، وتجهيز الموتى وتسفير الفقراء وتتولى الجمعية غير ذلك من أعمال الخير وستكون قيمة الاشتراك فى الشهر عشرة قروش صحيحة واذا تبرع بعض الاغنياء بأكثر من ذلك فيكون لهم الفضل الخ

هذه خلاصة الكتاب وفيه من الحث على مساعدة الجمعية ما هو طبيعى ولكن حسن ظن القوم بى لا يمنعنى من النصح لهم بأن يجعلوها جمعية خيرية مطلقاً بدون وضع اسم «السورى» عليها وأرجو أن لا يحمل ذلك على ضعف فى الوطنية بل أن يتدبر القائمون بالامر فيما أقول .

المسلم السورى هنا لا يعتبر كما يعتبر غيره خصوصاً وهو كما قلنا لم يدخل فى معترك السياسة المصرية ، ولذلك ينظر اليه المصرى بأنه أخوه ووطنيه يعامله كما يعامل ابن النيل ويبوح اليه ببثه وحزنه ويصاهره ويعاشره ويرتبط به ولذلك تدعو الحكمة أن يقوم السورى هنا — ان كان لا يرى مندوحة له عن أن يسمى نفسه بهذا الاسم — فى جميع أعماله تبعاً لاخيه المصرى

ليعمل السورى الخير ولكن لا على أنه سوري بل على أنه مسلم أومصرى، لان الادب يقضى عليه أن يندمج فى جسم أخيه المصرى لينتفع كلاهما بصاحبه. وما جزاء من يحب الا أن يحب . ومن أدب الغريب أن لا يجهر بان مصلحته تخالف مصلحة من ينزل عليه

المسلمون من أهل البلاد المجاورة لمصر ما زالوا منذ القديم يهبطون هذا القطر كسائر الامم ، ولكنهم يندمجون فى سلك أهله ولا يلبثون أن تكون لهم نفس حقوقهم وذلك لما وقر فى النفوس من انتفاء الجنسية فى الاسلام ، ولان من مصلحة النزيل أن يكون تبعاً للزميل لا يقاومه فى رغباته بل يخدم الغرض الذى يرمى اليه ما دام الغرض لا يتعدى طور العقل فيجد النزيل من ابن البلاد كرم الوفادة بما لا يعذر به ابن البلاد نفسها . والغريب بالنظر لنشاطه اذا لزم الادب مع من ينزل عليه يربح أكثر من حرصه على الاسماء

وما سورية ومصر الا بلدان متجاوران والسورى الذى ينفع مصر مصرى والمصرى الذى ينفع سورية سورى . والحمد لله ان خلقنا فى زمان سقطت معه دولة التحزب للجنسيات ، فلم يعد الناس كما كانوا فى الازمان السالفة يعادى بعضهم بعضاً فى القطر الواحد بل فى البلد الواحد بل فى الحارة الواحدة على أسماء ما أنزل الله بها من سلطان اللهم الا عدم المعرفة بطبيعة الكون ، وطبيعة تنقل الناس فى هذه الارض منذ القديم

الحمد لله أن جئنا فى زمن نسمع فيه ان البشر يفكرون فى اختيار لغة واحدة تجمعهم ليتعارفوا بها ، وأن يزيلوا الحدود من تخوم الممالك حتى لا يكون بين أمة وأمة ما يصدهما عن الاختلاط وجلب المنافع ودرء المضار

وان كل عاقل ليوقن بأن النغمة التى ضرب على وترها بعض السوريين فى هذا القطر على عهد انتشار حرية الاقلام لم تكن الا من باب « خالف تعرف » أراد بها أربابها التذرع الى نيل الشهرة أو أغراضاً مادية أخرى . ولذلك أخشى أن تكون تلك النغمة التى سكنت نأمتها الآن هى التى بقيت بقاياها فى أذهان بعض المسلمين من السوريين فقاموا اليوم يريدون أن يخرجوا عن الجماعة ويؤسسوا لانفسهم بأنفسهم جمعية تضم شتاتهم ولو فعلوا لكان شرها أكثر من خيرها وعلى الله قصد السبيل

غوطة دمشق (١)

ايه غوطة الفيحاء ، مجلى الطبيعة ومغنى الانس ، وروضة الطيبات ، ومهبط التجليات . سلام زكي كتربتك المسكية ، جميل جمال بسطك السندسية ، عطر كانوار أدواحك الجنية . وتحية طيبة تتساقط على عمرانك ، تساقط الوابل والطل على جناتك الغناء ، وحراجك الغلباء ، وأشجارك الميلاء ، وغلاتك الكثيرة الاتاء

سلام عليك يا مستقر النعماء ، وقرارة الهناء والرخاء ، وخير خلوة يفزع الى ارجائها الناسكون والعالمون ، ويتقلب في أجوائها عشاق الطرب وأرباب المجون. فيك تتجسم عظمة خالق السموات اذا بالغ في الافضال على الارضين ، وتبدو همة الخلق اذا صحت عزائمهم أن يكونوا عاملين لا خاملين ، فليس في الاقاليم ما يفوقك باعتدال المواسم ، وافتراز المباسم ، وتلون المظاهر ، وتنوع الثمرات والازاهر ، وتلوى الجداول والانهار ، وتجلي الطبيعة في العشايا والاسحار

سلام على وادي دمشق انه آية الحسن والاحسان ، فيه تتجدد الحياة كل حين لانه بمنزلة الربيع من الزمان ، ويحلو العيش في ظل افيائه على سذاجته مهما كان مراً ، وتطمئن النفس الى التنقل في رباعه برداً كان أو حراً . إيه غوطة جلق لم يؤثر عنك أن أمسكت خيراتك عاماً عن أبنائك ، فلا تفتأين على الدهر تخرجين لساكنيك أفلاذ أكبادك ، على تعاقب الامم والدول ، وتصدقين الود لكل من يطلب قربك ، فيعيش معك في رخاء وصفاء

سلام على سكونك في الليالي الظلماء والقمراء ، ربيعاً كان أو صيفاً أو خريفاً أو شتاء ، وهنيئاً مريئاً لمن يستمتعون بالنظر اليك من الصباح الى المساء ، ويتمهدونك بالحرث والكرث والتقليم والتنقية والزرع والارواء ، سواء عندهم حمارة القيظ وصبارة القر ، وظلمة الليل وشمس النهار . سلام عليهم انهم مثال النشاط في المزارعين ، لا يضنون على أرضهم بأوقاتهم واتعابهم ، وهي تجودهم

(١) نشرت هذه المقالة والمقالتان بعدها في جريدة المقتبس سنة ١٣٣٣ (١٩١٥) وأسلوبها أسلوب الشعر المنثور المعروف عند الافرنج

ضروب الخير والمبر كلما جودوا زراعتها ، وتزيدهم بركات على بركات ، كلما رعوها فأحسنوا رعايتها ، وهم مهما صهرت جسومهم حرارتها ، وصفرت سحناتهم وطويتها بيض الوجوه شم الانوف ، لان رزقهم مناط أيديهم العاملة ، لا يعتمدون فى تحصيل قوتهم ، على غير قوتهم ، ولا يتكلون الا على من ينزل الغيث ، ويمرع الزرع ، ويدر الضرع ، ولو حسن فيها نزع الفضول ، من العقول ، وأنيرت بأنوار علوم المدنية على الاصول ، فتمهد أبناؤها بالتربية كما تربى عندهم الرياض والحقول ، وتوقى مما يؤذى الزروع والثمار والبقول ، لكانت خير بقعة يسكنها ساكن فى الحياة ، ولصح عليها قول من قال : طوبى لمن كان له فى أرضها مربض شاة

سلام غوطة دمشق كلما غردت أطيارك فلك على المشاعر سجع الحمام واليمام ، وهديل العندليب والهزار ، وتغريد العصفور والشحرور ، كيف لا تستهوين النفس ، ونعيق الغربان ونقيق الضفادع ، اذا رددها الصدى فى لياليك ، يفسرها القلب بمعان لا تفهم منها فى الكور الاخرى ، كما يفسر فى النهار ثغاء الماعز والحملان ، وجؤار البقر وخوار الثيران

فسلام وألف سلام عليك يا كريمة الطبع ، وبديعة الصنع ، وعريقة المجد ، ونبيلة الجد والجد ، وزكية العرق ، وهينة الرزق ، وطيبة النجار . والمحسنة للاهل والجار ، ففى مغانيك تصفو النفس من كدورات هذه الحضارة المائقة وتنجو من سماع فظائع الانسانية المعذبة ، وبقليلك — وان كان قليلك لا يقال له قليل — يغتبط الانسان ، ولا يتكالب على حطام الدنيا تكالب الضارى من الحيوان ، ويطلع الزهرة ربة الجمال من منافذ أفقك توحى الى الخيال روحاً من عندها ، فتفيض القرائح وترق العواطف ، وفى منبسط صعيدك الطيب ، يسلو الخاطر همومه ، وتطرب الحواس ، من دون ما كاس ، ولا نغمة أوتار وأجراس

فى هذا الريف العجيب تقرأ سور العدل الالهى فى تقسيم الارزاق فلا فقر مدقع ، ولا غنى مفرط ، ويعيش القائمون على تعهده عيشاً متشابهاً الا قليلا ، يغتنى أفرادمنهم بذكائهم واقتصادهم ، فلا ترى فى فقرائهم سلاطة الجياع أرباب النهم ولا فى أغنيائهم قسوة قلوب أهل الرفاهية والنعم ، فسبحان من وفر للغوطة قسطها من الغنى والغناء ، وضاعف لها حظها من الجمال والاعتدال ، وأجزل لها

عناصرها الحيوية فزادها كر الجديدين نماء الى نماء .

شبه جزيرة كليبولي

الى هذه البقعة الطيبة بمناظرها وغاباتها وسهولها وجبالها يهوى اليوم ويحق له أن يهوى فؤاد كل عثمانى يحب هذا الوطن المحبوب ويتفانى فى التبرك بتربته ويخاف عليها من عوادى المعتدين ويكره لها ظل المستعمرين من الفريبين

جزيرة مستطيلة كهذه يبلغ عرضها فيما أذكر من ستة كيلو مترات الى ثلاثين وطولها ٨٥ كيلومتراً تتقادفها القنابل والقذائف والدمرات والمنفجرات وطيارات السماء ودوارع الماء منذ زهاء سبعة أشهر وهى لاتزال صابرة على الاذى باسمة الوجه للقاء المدى

فى هذه الشبه الجزيرة تجلى العقل العثمانى وتم آخر ما وصلت اليه مدارك أبناء هذا الوطن فى استكمال أسباب الدفاع والاخذ بحظ أوفر من أساليب الكر والفر والتعبئة والمصاف ولولا هذه العناية والاستهانة بكل عزيز فى سبيل الذود عن حمى هذه الشبه الجزيرة لتبدلت وجه الحرب الاوربية ، ولنالنا من الاضطهاد ما لا يكاد يخطر لنا على بال

هذه الارض المحاطة بالبحر من أكثر أطرافها عرفت دول الاتفاق المربع أن هناك قوة أسمى من قوة البشر وهى القوة الالهية التى استند اليها العثمانيون قبل كل شىء ودونها قوى الاساطيل والغواصات والطيارات والمقذوفات والمفرقعات يضاف اليها يقين مازج الافئدة والارواح من ثقة الانتصار وكراهة ليس بعدها غاية لحكم الاجنبى ، والتشبيع بمعانى الوطنية والجنسية

وقفت على جبهات الحرب فى مواقع (ارى برونى) و (انافورطه) و (جناق قلعه) وأشرفت على انحاء (سد البحر) وهى المواقع الاربعة التى دار ويدور عليها القتال واشتد فيها الطعن والنزال فعظم فى عينى غناء جيشنا ، وفاخرت نفسى بقوادنا وضباطنا وجندنا ، وأيقنت اننا اذا ضممنا شملنا فى كل نازلة وكل شأن ، وتذرعنا بعامة الاسباب التى يتذرع بها البشر المدن ، نضاهى أعظم الدول منعة ومضاء ، وها قد قضينا باعتصامنا بحبل الله على مطامع الطامعين وهم ماهم بقواهم البرية والبحرية

سبعة أشهر مضت على دفاع جناق قلعة والعدو يمخر العباب بدوارعه وطراداته ورعاداته ومدمراته ، ويخرج الى البر الكتائب أثر الكتائب ، ويستجلب السلاح ويتذرع بأقصى ما وصل اليه طوق الانسان من التفنن فى إرهاق الخصم واقتحام السبل ، فلم يستطع التقدم شبراً عن المكان الذى نزله أول يوم ، ولا يزال جيشه تحت حماية أساطيله لاذرى له ولا أكمات وجيشنا يطل عليه اطلالا يذيقه كل يوم مرارة الهزائم ألواناً وأشكالا ويفحش القتل فى رجاله حتى قدر الهالك منه بنحو مائة الف فقدها وفقد معها جانباً من أسطوله . وانفق عشرات الملايين من الدنانير وهو فى مكانه لم ينل ولن ينال بحول الله ما تطمع به نفسه من استباحة حمانا

هذا المضيق هو فى الحقيقة مفتاح دار الخلافة وكان المتفقون على مثل اليقين بأن عمله سهل يحتاج الى بضعة أسابيع ولكن خيب المولى ظنونهم ونعى عليهم اعتدادهم بقوتهم وألقى عليهم أمثولة مما ينال الظلمة من سوء المغبة . وان التمويه للعبث بعقول الناس لحكمهم كما تحكم البهائم ان جاز يوماً فلا يجوز على الامم فى آخر ، وأن الله لا يضيع عمل عامل

ان دفاعنا فى حمانا فى جناق قلعة قطع آخر عرق من الآمال للمتفقين وقضى على مطامعهم فينا أبد الدهر ان شاء الله ومن رأى ما رأيناه هنا من ابداعنا فى طرق القتال وشاهد استعدادنا فى خصومنا وطرقنا وسلاحنا ومدافعنا ونظام جيشنا وما ينبغى له من المؤنة والذخيرة والتمريض ، يجهر بصوته قائلا هذا عمل لا يتهيأ إلا لأمة تحب أن تبقى ، ولا يتيسر ذلك الا لمن كتبت له السعادة

غابات شبه جزيرة كليبولى ونجادها ووهادها وسواحلها وسهولها . لقد طلت فى ربوعك دماء زكية من دماء العثمانيين ولكنها ستبقى على جبين الايام مسكية الاريج عطرة بالثناء تنم عن معرفة من استشهدوا فى سبيل الفرض الوطنى ، وذاقوا معنى الوطن والوطنية . ان الدم الطاهر الذى أريق على تربتك جعل لها ريحاً من ريح الجنة وسيكون لمن فادوا بها من الذكر الجميل ما كان لابطال المسلمين فى وقائع الصليبيين وشعار ذلك : هذا عمل أفراد قتلوا ليحيوا أمة . وفادوا بنفوسهم فى سبيل الله ليحموا ذمار الخلافة المعظمة ، ويربأوا بهذا الوطن عن أن يستباح

حماه ويحافظوا بارواحهم على آخر دولة اسلامية مستقلة جمعت شمل الاسلام والمسلمين وحمت حمى الحرمين الشريفين .

كلما هبت الصبا والشمال على أرجاء شبه جزيرة كليبولى ، وطلعت عليها الشمس وغربت ، وأقفرت السماء وأظلمت وأمطرت وأثلجت ، وأرعدت وأبرقت ، يردد لسان الحال فيها هذه ثمرة التضامن بين أعضاء البيت الواحد . هنا قضى العربى والتركى والكردي واللازى وغيرهم لأعلاء كلمة الحق واتقاء عادية الدخيل الثقيل . هنا نظم العثمانيون أرقى جيش انتظم لهم منذ عهد الفاتح وسليم وسليمان وتشبع أهله بروح الوطنية ، وغنم غزاتهم أحياء وأمواتاً سعادة الدارين

أرض شبه جزيرة كليبولى ، ستبقين مقدسة فى نظر كل مسلم كما قدس الله الارض المقدسة ، وستذكرك الاجيال عقيب الاجيال ، والدهور أثر الدهور ، بالاعظام والاحترام ، كما تذكر هذه الحرب العامة بالهول والاستغراب . أنت كذبت البشر فى ادعائهم أن (كل محصور مأخوذ) وأكدت لهم عكس القضية فى أن (كل محصور محفوظ) . فسلام عليك محاربة ومسالمة ، وألف ألف رحمة ورضى على عظام شهداء ضمتها تربتك الطيبة ، ومروجك السندسية وتلماتك الزمردية

جبال طوروس

هذا مضيق يسمونه اليوم (كولك بوغازى) ومعناه مضيق الكيلة كيلة الحبوب ، كانت العرب تسميه الدرب أو الدروب ، ذكره امرؤ القيس ملك الشعر فى الجاهلية فى شعره لما توجه الى قيصر الروم وكان مشى معه صاحب يقال له عمرو ابن قميئة الشاعر فلما رأى عمرو الدرب وهو الحاجز بين بلاد العرب وبلاد العجم بكى جزعا لفراقه بلاد العرب ودخوله بلاد العجم ففى ذلك قال امرؤ القيس :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه وأيقن أن لاحقان بقيصرا

فقلت له لاتبك عينك انما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

أما نحن فابتهجت أنفسنا وأيم الله واطمأنت لما اجتزنا الدرب وعلمنا اننا نركب بعده القطار ولم يبق لنا الا ساعات معدودة لنبلغ دار السلطنة بهجة الدنيا وقرارة الدعة ومدينة المنعة ومعهد الظرف واللطف وبلد الشعر والخيال . أن

الدرب أو مضيق (كولك بوغازى) واد تتخلله الانهار والجداول، ويكسو شجر الارز نجاده ووهاده، على صورة تظنها من هندسة أعظم مهندسى الزراعة لمهدنا وما هو فى الحقيقة الا مما نبت واستطال بنفسه. أنت لا تنفك منذ تطأ عتبة جبال طوروس، تشم أريج شجرها ورندها وعرارها. ولا تسأم من مناظرها لانها متنوعة فى تقاطيعها وجمال هندستها. بحيث لا تمل العين النظر، ولا الأنف الشم ولا الأذن السماع. لحفيف أشجاره، وتمايل أغصانه، وثغاء حملانه، وخرير مياهه، وأصوات عندليبه وهزاره

أن من يسمع من بعد وصف (كولك بوغازى) يقول فى نفسه: ماذا عسى يكون فى هذا المضيق؟ وجبال الدنيا كثيرة متشابهة، صخور وتلعات: واكمات وبطون ومنفرجات، وشيح وقيصوم، وسنديان وزان. ولكن جبلنا هذا لا يشبه الاجبل بحال، لأن مدير الاكوان خلقه على غير مثال من الجبال، ولون صخوره وأحسن قطعها فمنها الكبير الهائل، ومنها الصغير الحقير، وتربته حمراء وسوداء وبيضاء ترى تارة فى الهضاب طريقاً معبدة من الصم الصلاب، أو مرصوفة بالتربة الذكية، غرست فيها يد القدرة أشجار الارز غرساً يتخلل الهواء بيننا، ولا تنبو العين عنها لعدم نظامها، واختلال هندستها، وترامى ابعادها. وهناك الاشكال الهندسية برمتها: فمن تلعة مستطيلة، الى أخرى هرمية، وبجانبها ذروة ذات شكل بيضوى، وآخر محدوب أو مربع، أو قائم الزوايا ومنفرجها جعل بعضها الى جانب بعض ومساحتها السطحية متقاربة. وكلها مزينة بالاشجار. أنت هنا تجتاز واديا ولا كالاودية. بحيث تعطى الحق لمن قال فى القدم «ماء ولا كصداء» و«مرعى ولا كالسعدان» و «فتى ولا كمالك» ولو رأى القائل الدرب لقال: مضيق ولا كهذا وجبال ولا كطوروس

هذه العظمة فى الخلق التى تراها ماثلة على أتمها فى جبال طوروس التى أعجزت الفاتحين من الاقدمين والمحدثين. فكانت كالحاجز الطبيعى الذى لا يرام بين الثغور وبين بلاد الروم. عامرة بطبيعتها، هندسها الفاطر، وحفها بانواع البهجة والزينة، بحيث لا تملها نفس مهما اكتأبت، وتود لو تقضى فيها شطراً من العمر، بعيدة عن ضجة العالم وأوهام الخلق، وترهات المتمدنين والمتبربرين

جبال طوروس البديعة ، لقد أعجزت الفاتحين عن اجتياز مضايقك ، كما أعجزت الشعراء والمصورين عن رسم بدائعك وخصائصك . فما هذا الابداع الذى عز نظيره في الاصقاع والبقاع . إيه يامنطقة البكم بالشعر ، ومعجزة المتكلمين فى ذكرى فضائلك وفواضلك

ان جبال الالب التى استبت الالباب ببدائعها ، وجبال الكاربات التى اشتهرت بصياصيها الطبيعية ، وجبال حملايا المعروفة بسموها ، هى دونك فى جمع كل هذه المعانى ، ولو هيىء لك ما تهيأ لتلك من يد صناع ، تحسن حواشيك . وتهذب من أطرافك ، وتتعهد أزهارك وأشجارك ، بآخر ما اهتدى اليه العقل البشرى من ضروب الصناعة ، لكنت لعمر الحق معهد اجتماع المصطافين والمرتبعين ، ومسرح أنس طلاب اللذائذ الطبيعية والصناعية ، وخزانة ثروة لاهلك لا ينضب معينها وتنضب مياه الرافدين دجلة والفرات . ولكنه تعالى لا يمنح بلداً كل ما يحتاجه ولا يجمع فى شخص كل الصفات والمزايا . فسبحان من قسم الخصائص بين البلاد كما قسم الحظوظ بين الجماعات والافراد

على قبر أبى الفدا فى حماة[1]

حنانيك اسمعيل أجبنى فدتك نفوس الملوك يا عالمهم وعادلهم وسيدهم ، كنت فى عصرك مثال العمل الصالح ، وها أنت لمن بعدك عبرة لمن يعتبر .

زرت قبرك الشريف وذكرت سيرتك المثلى ، فبكيت على الاسلام والعرب ، وقابلت بما قرأته على ضريحك بين السذاجة الغالبة عليك ، وفخفخة الالقاب بعدك قرأت : « هذا ضريح العبد الفقير الى رحمة ربه الكريم اسماعيل بن على بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب عمر فى شهور سنة سبع وعشرين وسبعمائة » جملة لا يجوز نقشها اليوم على قبر أحد العامة ، فاين أنت منها يا أبا الفدا فى مفاخرك وسؤددك ، ومجدك التالد والطارف

حنانيك اسماعيل كنت فى حياتك قدوة الملوك العادلين ، تعلم الناس حب

(١) كتب هذا الفصل سنة ١٣٢٩ — ١٩١١ ونشر فى المجلد السادس من المقتبس

الخير ، وتعلم العلماء فيما توفروا عليه ، والفاتحين ما يفاخرون بمعرفته ، والحكماء ما هو ثمالة امجادهم ، وها أنت الآن رهين حفرة قد كاد ينسى بين قومك ذكرك فلا تبدى ولا تعيد ، وقومك نسوا دينهم ودنياهم فكيف لا ينسون رجالهم

نشأت أيها السلطان العادل من بيت عز وملك ، فلم تأخذ الزخارف بلبك ، بل تخرجت فى العلم ، وربيت على أدب النفس وأدب الدرس ، حتى جاء منك عالم بل معلم للعلماء بسيرته وتفننه .

نشأت نشأة عالية فى القرون الوسطى وغيرك من الملوك نشأوا ولا سيما بعدك نشأة جاهليـة : على الخمر والزمر والقمر ، لا يعرفون غير القصور ، والولدان والحور ، وغاية مفاخرهم انهم يبطشون ولا يبالون ، يقتلون ولا يتألمون ، يتعاظمون ولا يتواضعون ، يقضون فلا يراجعون ، يأمرون ولا يعدلون

أضحت أحكام بعض الملوك بعدك ذوقية ، وأعمالهم على الاكثر استبدادية ، اتخذوا الاسلام ديناً وهو منهم برىء ، وعبثوا بالرخص والعزائم ليس لهم وازع من أنفسهم ، ولا رادع من أممهم . أضحوا جبابرة لا ملوكا ، وشياطين لا انساً ، وأنعاماً لا يعرفون الا ما فيه راحتهم ، وتوفير قسطهم من اللذائذ والبذخ والنعيم

كنت أبا الفدا ملكا بالاسم ، وملـكا بالفعل ، كنت شريفاً بماضيك وحاضرك ، وها أنت الى يوم الناس هذا والى غد وما بعد غد شريف فى عامة أحوالك .

لم نعهد لك كما عهدنا للملوك قبلك و بعدك أن عددت الرعية كالسائمة التى تملك فيتصرف مالكها بدرها ووبرها وجلدها ولحمها ، ويعمل مطلقاً فى الاستمتاع بها لا ينازعه منازع . بلى عهـدناك تؤاسى الضعيف ، ولا تجور على الفقير ، وتحسن للعلماء ، وتفضل على الفقهاء والادباء والشعراء ، وتصرف فضل أوقاتك فى التأليف والتصنيف ، يا ثانى المأمون بعلمك وعقلك ، وثانى صلاح الدين بعدلك وجهادك .

أبا الفدا ان قومك أغفلوك وسيرتك ، بل أهملوا ضريحك ، ولو ذكروك لساروا ولو قليلا على سنتك المحمودة ، فعلمت الملوك من بعدك بسيرتك الطاهرة كما كنت فى عصرك خير معلم للملوك العادلين والعلماء العاملين

أبا الفدا ان الملوك بعد عصرك جمعوا كثيراً وأضاعوا كثيراً ، جمعوا فكان ملكك بجانب ماملكوا جزءاً صغيراً جداً ، وما خلفوا الا ما تحمر وجوههم خجلا منه ، ويأتون فى الآخرة وقد شهدت عليهم لا لهم أعمالهم ، وأنت سعدت بمن وليت عليهم وسعدوا بك ، فأبقيت ذكراً لا تمحوه الايام

أنت علمت الخلق بان القليل مع العقل يستفاد منه أكثر من الجزيل بدونه ، وان وفرة المال والعقار لا تكون من السعادة فى شىء اذا لم تسبقها نفس مهذبة بالآداب والفضيلة ، وعقل يحسن التصرف بما يملك .

من لى بنظرة منك لترى ما حل بالعرب اليوم من التمزيق والتفريق ، والفساد فى المعاش والمعاد ، والجهل المطبق ، وضعف العقول . رأس اخلاف من حكمت للمذلة ، وخنعوا للاستبداد ، وتفرقوا تحت كل كوكب ، فرثى لهم الصديق ، وشمت بهم العدو ، وخانهم الدهر فاستخذوا ، وكل ذلك بما فعله سفهاء الاحلام من أمرائهم وعلمائهم انهم كانوا ظالمين .

قم وانظر فقد بدلت الارض غير الارض بعد عصرك : اخترع الافرنج فى زماننا البخار والكهرباء ، ووفروا مرافق الحياة ، وقربوا الابعاد ، وحسنوا العيش ، أما قومك فليس لهم من مدنية القرون الاخيرة الا النظر ، وزادوا على جهلهم فساداً فى أخلاقهم ، بحيث لم يبق لهم من المجد الا أن يعودوا الى صحيفة أجدادهم ويفاخروا بما تم على أيدى أمثالك ، كالقرعاء تفخر بشعر أمها ، أو العجوز الشوهاء لا تفتأ تذكر ماضى شبابها .

قالوا ان نظام الحكومات بعد أيامك ارتقى ، وانكم كنتم فى عصر تقل فيه القوانين الوضعية ، وكان أكثر العمل بالقوانين السماوية . فمن لنا بعصرك فان القوانين الوضعية ارتقت ولكن عند غيرنا من أهل الغرب ، والقوانين السماوية أعرضنا عنها الا قليلا فلم نحسن تقليد المقننين المحدثين ، ولا احتفظنا بتراث الاقدمين ، فكنا كالعقعق أراد أن يمشى كالحجل فنسى مشيته ولم يمش مثله ، بل كنا من الاخسرين أعمالا

ألا عطفة من نظراتك الرشيدة أيها الكريم تنظر أمتك الآن الى الانقراض أقرب منها الى البقاء : كل يوم تصغر رقعة بلادها . ويتحيفها الخراب وينقصها

من أطرافها تحاول تقليد الراقين من الامم ، فلا نراها تستطيع الا تقليدها فى الموبقات والشرور ، لا فى مقومات الحضارة وأساليب النهوض .

رحمك أبا الفدا ان أمثالك أنفقوا أموالهم وأموال الامة فى شهواتهم على المغنين والمغنيات ، والكواعب الغانيات ، وأنت أنفقتها على العلم والعلماء ، انهم اذا كانوا جهلة أغبياء فقد كنت العالم المؤرخ الجغرافى الطبيب الحكيم الفلكى ، ومصنفاتك شاهدة لك على غابر الدهر ، بأنك عالم الملوك وملك العلماء ، خلد اضرابك بسيرتهم صيت بطش وفتك ، وقطع وقت فى العبث وأنت أقمت نصاب العدل على من وليت أمرهم ، فكانت أيامك رياض الازمنة وبهجة العصور ، فجزاك الله عن أمتك أجزل ما يجازى ملكا صالحاً عن رعيته ، وعالماً عاملا يخدم الناس بعلمه وفضيلته اه

نحن والمسكرات[1]

صرنا الى زمان لو قلنا لحكومتنا ان الطريقة الفلانية فى الحكم أو منهج كذا فى القضاء والادارة لا توافق بلادنا ولا تنطبق مع عاداتنا وشرعنا هزت رأسها وأعرضت عنا إعراضاً . وصرنا الى زمان لو قلت لاكثر أهل الطبقة العليا والوسطى من قومنا قال الله وقال الرسول رأيتهم ينأون عنك ويصدون صدوداً

فلعل الحاكم والمحكوم عليه اذا أتيتهما بكلام جديد قاله غيرنا يلقيان اليك بالاسماع وتلين لمقالك القلوب والطباع . قال بنتام المتشرع الانكليزى (١٧٤٨-١٨٣٢) فى كتابه أصول الشرائع : « الخمر فى الاقاليم الشمالية يجعل المرء كالابله وفى الاقاليم الجنوبية يصيح به كالمجنون . ففى الاولى يكتفى بالمعاقبة على السكر لانه عمل فظيع وفى الثانية يجب منعه بطرق أشد لانه أشبه « بالتشرر » ولقد حرمت ديانة محمد (صلى الله عليه وسلم) جميع المشروبات الروحية وهذا التحريم من محاسنها »

(١) نشرت في جريدة المؤيد سنة ١٣٢٤ (١٩٠٧)

نعم حرم الاسلام الخمر ولكن أمتنا عز عليها الا أن تزهد فى كل ما أتى به شرعها من المحاسن وأن تقلد غيرها فيما هم منه يشكون ويئنون . ولو كنا أخذنا عن الغربيين النافع كما تلقفنا الضار لهان الامر وسلمنا من النقد بعض السلامة ولكننا أجدنا التقليد فى المضار ولم نحسن الجرى على مثالهم فى المنافع .

قضى الله أن تمنى هذه البلاد بحكومة ليست منها ولا مزاجها مما يلتئم مع مزاج من تحكم عليهم . فكان من الغرب انه أخذ منذ عشرات من السنين يحارب المسكرات بكل قوته ونحن نفتح لها السبل ونهيىء الاسباب . الغرب يضرب عليها المكوس الفادحة ونحن باسم الحرية التجارية وبفضل تهاون الحكومة نقبل من ضروبها ما نعرف جوهره وما لا نعرفه . يقوم قادة الافكار فى الغرب فيبينون مضار الخمور وينعون على شاربيها ويضيقون المسالك فى وجوه عاصريها وبائعيها وأغلب قادة الافكار منا يشربونها بلا حرج ولا نكير بل يسخرون ممن لا يشاركونهم فى اثمهم ويريدونهم على أن يتشبهوا بهم ليعدوا من المتمدنين العصريين

فالذنب اذن ليس على الحكومة وحدها بل عليها وعلى الاهالى أيضاً . بيد ان هؤلاء يعذرون بعض الشىء لان الحكومة لم تعلمهم التعليم الصحيح حتى يتبين لهم الضار من النافع . ومادام السواد الاعظم جهالا وخيرة الناس ليس لهم من الامر شىء فاللوم يرجع على الحكومة فى الاكثر

والغالب أن عميد الاحتلال أدرك ماتتوقع البلاد من الشرور اذا هى ظلت مسترسلة فى الخمور فقال فى تقريره ان الحكومة وجهت التفاتاً خاصاً الى مسألة المسكرات لانها من المسائل المهمة وانها رفضت عام ٩٠٥ — ٣٧٠ عريضة طلب أربابها رخصاً ببيع المسكرات وانها لم تعط رخصة الا بعد أن ظهر من البحث الدقيق أن معظم الاوروبيين المقيمين فى جوار الحانة لا يستغنون عنها . وانه نقص ٢٧٨ من الاماكن ذات الرخصة وغيرها منها ١٧٨ محلا ليست ذات رخصة .

قال وقدتم الاتفاق مع سكة الحديد على اقفال الحوانيت التى تفتح تحت اسم « بوفيه » فى جميع المحطات ماعدا الكبيرة فكلما انتهت رخصة واحدة منها لاتجدد لها مالم تكن المحطة مهمة وان القانون الحاضر لا يسرى على بيع المسكر

فى زجاجات أو براميل ولذلك لم تراقب دكاكين البقالين وغيرهم من الذين يبيعون المسكرات

قال ويظهر أن العمال فى الارياف قلما يتعاطون المسكرات ؛ وقل أن يرى ساكنو الارياف رجلا سكران ؛ أما البنادر فالسكر فيها أكثر انتشاراً ولكنه ليس كثيراً لحسن الحظ ، وقال المستر متشل من أعظم عيوب نظام الامتيازات الاجنبية اننا نسعى جهدنا فى منع بيع المسكر بالمفرق ولا نستطيع منع عمله وبيعه براميل

هذا كلام زعيم الاحتلال وهو كما تراه لو انصفت لا يخلو من جمجمة فقد تلطف فى قوله ان أهل الارياف قلما يرون ثملا وأن السكر شائع فى البنادر وأن الحكومة لا تعطى رخصاً ببيع المسكرات الا فى المحال التى لا يستغنى عنها الغربيون النازلون فى جوارها

كل من طاف الأرياف وخبر حال البنادر والدساكر يتضح له أن الحانات فى القري تزداد سنة عن سنة بل شهراً عن شهر فيجىء الرومى يفتح دكان « بقالة » ويضع برميلا من الكحول فما هو الا أن تمضى سنة حتى يقتل كثيرين بما يسقيهم من السم الزعاف ويروح بالمغانم فيكون له الغنم وعلى غيره الغرم وتستوى فى ذلك القرى التى فيها أوربيون لا يستغنون عن الحانات فتفتح من أجلهم والقرى التى لا يكثر فى جوارها الغربيون .

كلما نادى المنادون فى التماس تعديل الادارة الحاضرة قالت لهم الحكومة كنت أفعل لولا ما هنالك من الامتيازات الاجنبية فانها تعوقنى عن مباشرة أى عمل وتغل منى اليد والساعد ولكن حصون الامتيازات ليست بالذى يصد فى الحقيقة من عمل ينتفع به الاجانب كما ينتفع به الوطنيون

تسمح الحكومة لمأموري الادارة فى بعض المسائل كضبط الاشخاص المشتبه فيهم من الاجانب بدون أن يتداخل القناصل فهلا سمحت بمثل ذلك لرجال الادارة فى المسكر فتعهد اليهم أن يفتشوا المحال المشتبه فى انها تبيع المسكرات بلا رخصة أو تبيعها من الاجناس الرديئة ولا يتوقف ذلك على أخذ الشراب المشتبه به وانتظار شهرين ريثما يحلل التحليل الكيماوى فان شوهد انه ردىء فيكون

صاحبه قد صرف ما كان عنده منه وان ثبت انه جيد يحق للبقال أو الخمار أن يرفع قضية على رجال الادارة والصحة وربما ربح القضية خصوصاً اذا كان من غير رعايا الحكومة المحلية .

نعم كيف يسوغ لرجال النيابة أن يفتشوا أى مكان يرتابون أن فيه أمراً محظوراً وعملا يخل بالراحة فاذا لم يجدوا فيه شيئاً يعفون من العقاب ولا تقام عليهم القضايا وكيف تقام القضايا على رجال الادارة اذا فتشوا محلا عمومياً ولم يجدوا فيه شيئاً من المسكرات وغيرها فكما عهد لمأمورى الادارة أن ينظروا فى المسائل البسيطة مباشرة بدون توسط القضاة وحسنت نتيجة ذلك فقد كان الاحرى أن يعهد اليهم النظر فى مسائل المسكرات لمطاردتها وتخفيف ويلاتها عن البلاد

اذا أطلقت يد رجال الصحة والشرطة للبحث فى الحانات وعين مثلا يوم للكشف على المشروبات ورأى البوليس شبهة قوية فى فساد الفاسد منها وأساغت له الحكومة أن يحجزها كلها حتى تتضح نتيجة التحليل الكيماوى وجوزت الحكومة للبوليس اذا اشتبه فى أى زجاجة كانت أن يفتحها فى الحال ويعمل بما يراه طبيب الصحة بدون تسويف ولا امهال — اذا أساغت الحكومة ذلك فقل ان هذه المسألة سارت الخطوة الاولى نحو الاصلاح

كل هذه الملاحظات سهلة الاجراء ولا يظن ان الامتيازات الاجنبية تحول دون تحقيقها بل ان اللوائح والقوانين الموجودة لو جرى العمل بها ولم تكن كعلم جابر — اقرأ تفرح جرب تحزن — توقف تيار المسكرات عن جريه بعض الشىء

تقرأ فى القانون المصرى الجديد أنه يعاقب السكران ولو لم يعربد وكان القانون القديم مثل القانون الفرنساوى لا يعاقبه الا اذا عربد . فكم سكران يعربد كل يوم وليلة ياترى وكم سكران يقبض عليه ليعاقب فيكون عبرة لغيره ؟

وكذلك ترى فى لائحة المحال العمومية انه لا يجوز فتحها قبل الساعة ٦ صباحاً من ١٥ اكتوبر الى ١٤ ابريل وقبل الساعة ٥ صباحاً من ١٥ ابريل الى ١٤ اكتوبر وان ميعاد اقفال هذه المحال يكون فى نصف الليل ابتداء من ١٥ اكتوبر الى

١٤ ابريل وفى الساعة الواحدة بعد نصف الليل من ١٥ ابريل الى ١٤ اكتوبر . وفى المادة السابعة عشرة من هذه اللائحة لايجوز لاصحاب المحال العمومية أو لمستخدميها أو للخدمة فيها قبول أشخاص فى حالة السكر أو بقاؤهم فيها ولا صرف المشروبات لهم . ولكن متى نفذت هذه اللائحة ؟ واذا لم تنفذها الحكومة حتى الآن فمتى يكون تنفيذها ؟ أو انها من جملة اللوائح التى هى حبر على ورق طول بلا طول ولا طائل

ويا ليتنا نعرف على وجه الصحة كم يدخل الموانى المصرية كل سنة من الخمور المغشوشة وغيرها وكيف تكثر سنة عن سنة ويا ليت الحكومة تضرب على واردات الخمر ضرائب فاحشة كالتى ضربتها حكومة السودان ليصعب تناولها على الفقير ويوكل كما قلنا أمر المشروبات التى تصنع فى القطر لرجال الادارة والصحة ينظرون فيها ويضيقون على شاربيها وبائعيها تضييقاً فعلياً لا اسمياً . فقد ثبت لاهل النظر أن الخمور المصنوعة فى معامل الغرب الكبرى هى أجود ما يعمل من نوعها فى المعامل الصغرى وكذلك ما يصنع فى هذه لا نسبة بينه وبين ما يصنع منه فى القطر

وليت شعرى لم لاتجرى عليه حكومة مصر فى مسألة المسكر على نحو ماتجرى حكومة السودان ولو فعلت ذلك لما أتى بضع سنين حتى يخف شاربوه ويقل بائعوه بيننا . ولكن حكومة تلك الجهات تريد هناك رجالا يعملون وهم صحاة لاسكارى وفى مصر لا يهمها سكر القوم أم عربدوا ، نعم ان انكلترا نفسها فى بعض الاقاليم من أفريقية منعت المسكرات بتاتاً ولكن حكومتنا المباركة عندنا لم تتسامح بالكحول بل أضافت اليه الحشيش فتأمل حالة أمة ينخر سوس فساد هذه المواد القتالة عظمها ويعبث فى دمها ولحمها .

***

ماذا عرفنا من مضار الخمور ؟ عرفنا انها تحدث نشوة فى النفس وطرباً فى الفؤاد ونفعاً فى الصحة ونشاطاً فى الجسم ونضرة فى الوجه وعرف الغرب منذ أوائل القرن التاسع عشر مضارها فى أزهاق الارواح وتشويه الخلقة الطبيعية وتأثيرها فى النسل والعقل وانها يزيد بها عدد المعتوهين بل كاد بعضهم لا يرى

استعمالها حتى فى الادوية. يكثر السكر فى الاصقاع الباردة مثل روسيا والسويد وشمالى فرنسا ونورمنديا وانكلترا ولكن يكثر مناهضوه وتفكر حكوماته فى الخلاص منه فأين هى مجتمعاتنا التى نخطب فيها بمضاره وأين حكومتنا من مناهضته؟ بلى انك ترى زعيم الاحتلال فى تقريره مغتبطاً بأن الخمور التى دخلت السودان فى العام الماضى «كانت ولله الحمد» من النوع الجيد أى الذى لا يضر بصحة المأمورين والموظفين من الانكليز والوطنيين.

آه متى يكون شأن الشرق فى السعى وراء المنافع سعى الغرب فيها؟ الغرب لم يكتف بتأليف المجتمعات لمقاومة المسكرات والنعى على شاربيها والتنفير منها بالقدوة والتعليم والارشاد بل عمد الى سن القوانين فاستعان بها لانقاذ أبناء الجيل الحاضر والجيل الآتى من مضار الالكحول وكانت أبداً قوانينه تابعة للزمن سائرة بحسب سنة التكامل

هذه بلاد السويد وهى من البلاد التى يقرص فيها البرد الى التى لا فوقها ومع هذا نراها كما وصفها مكاتب الطان هذه الايام بعد أن كان يصيب الفرد فيها سنة ١٨٣٠ — ٤٠ ليتراً من المسكرات أصبح لا يصيبه أكثر من ٦ ليترات سنة ١٨٩٥ بفضل ما قام به قادة الافكار وتابعتهم عليه حكومتهم. أى أنه نزل معدل مقطوعية كل فرد فى السنة من المسكر الى سدس ما كان عليه قبل ٦٥ سنة

بدأ الافراط فى تعاطى المسكرات ببلاد السويد منذ أواخر القرن الثامن عشر لما احتكرت الحكومة الالكحول فاسترسل أهل البلاد فى تعاطيها حتى كاد سيلها يجرف كل ما وقف فى سبيله ولم يسكر الا بسكر منيع أقامته فئة من أهل الخير وفى مقدمتهم رجل اسمه بطرس ويزلكران عميد مدينة غوتمبورغ. جاهد هذا الرجل ثلاثين سنة حتى وفق عام ١٨٥٥ الى وضع حد لهذا السم القتال فبدأ دور الاصلاح وكان ما عرضه من الافكار أساساً لوضع القوانين الحاضرة فى هذا السبيل وكلها ترمى الى معاملة بائعى المسكرات وصانعيها بالقسوة الزائدة

ضربت الحكومة السويدية على صانعى المسكرات ضرائب فاحشة وأخذت تزيدها الحين بعد الآخر حتى بلغت سنة ١٨٨٨ — ١٣٨ فرنكا على كل هكتولتر أى مائة لتر فعجزت المعامل الصغيرة عن صنع المسكرات اذ قضى على كل معمل

إما أن يخرج أربعة هكتولترات فى اليوم من الالكحول الخالصة أو يغلق أبوابه ولم تسمح الحكومة بتنزيل هذا المعدل الى هكتولترين ونصف الا سنة ١٨٧١ وحظرت أيضاً صنع الالكحول الا فى شهرين من السنة فقط ثم تسامحت ورخصت على توالى السنين بأن تصنع سبعة أشهر فى السنة .

وكان من نتائج هذه الذرائع الشديدة أن قل فى البلاد عاصرو الخمر . فبعد أن كان سنة ١٨٢٩ — ١٢٤ر١٧٢ معملا فى السويد نزل سنة ١٨٩٨ الى ١٢٨ معملا

وجعلت تلك الحكومة بيع المسكرات حراً فى الجملة الا انها جعلت معدل ما يباع منه بالجملة ٢٥٠ لتراً وأن لا يباع بالمفرق أقل من لتر واحد ليأخذها المبتاع معه ولا يشربها فى المحل الذى يشترى منه . وعاملت الحانات بالشدة الزائدة وكذلك محال بيع المسكرات فأمرت أهلها أن يغلقوا محالهم الساعة الثامنة مساء فى القرى والساعة العاشرة فى المدن ولم تسمح لبائع أن يتقاضى مالا من رجل ثمن خمر باعه اياه بالنسيئة .

وجعلت السويد ٤٢ فرنكا ضريبة على كل هكتولتر من الالكحول الصافى وهى ضريبة فاحشة . ومنعت كل مديرية من بيع الخمر فى دائرة اختصاصها . فادى ذلك الى الغاء معظم المحال التى تبيع بالمفرق بحيث أصبحت لا ترى فى قرى بلاد السويد — وسكانها نحو خمسة ملايين — سوى ١٢٣ محلا لبيع المسكرات بل انك تمر فى أربع ولايات ولا تجد محلا واحداً لبيعها .

وابتدعت مدينة غوتمبورغ طريقة لفتت اليها الانظار فى جميع الاقطار الا وهو ان تعهد بتجارة العرق فى كل مقاطعة الى جمعية تضع منها رأس المال . ولكنها لا تأخذ من الارباح الا الفائدة المعتدلة المتعارفة وتترك ما زاد عن ذلك يصرف فى أعمال نافعة فنتج من ذلك ان كل جمعية من هذه الجمعيات لم تر من مصلحتها أن تطلب المزيد فى توسيع أعمالها وبلغت الحال بكثير من أمثال هذه الجمعيات انها لم تعط جانباً عظيما من الرخص التى يحق لها اعطاؤها . واذ كانت كل حانة تقدم طعاما أصبح صاحبها لا يربح من الشراب بقدر ما يربح من الطعام ولذلك كان من مصلحته أن لا يكثر من بيع الالكحول .

وأنشأت هذه الجمعية فى مدينة غوتمبورغ مثلا مطاعم حسنة لا تقدم فيها

للمستطمين غير نوع من المشروبات فقط رأت انه يعين على اشتهاء الطعام وأنشأت في انحاء كثيرة من المدينة غرفاً للمطالعة يدخلها في السنة نحو ثلثمائة الف مطالع. وبهذه الطريقة نزل معدل تناول المسكرات في العشرين سنة الاخيرة الى ٤٠ في المائة بمدينة استوكهلم والى ٤٥ في مدينة غوتمبورغ وسنت السويد عام ١٨٩٢ قانوناً اجبارياً يقضي فيه على جميع المدارس أن تلقي دروساً في طبيعة المشروبات الروحية وتأثيراتها المضرة .

هذا ما قامت به حكومة السويد التي لا يحظر دينها تعاطي المشروبات وهي البلاد المشهورة ببردها وزمهريرها فما الذي قامت به الحكومة المصرية التي تحظر شريعتها كل مسكر وحرارة اقليمها لا تعذرها في الاستهتار والاسترسال في كرع كل ما يخترعه المخترعون من أنواعها وما يصنعه الصانعون في أرضها ليبيعوا من فقيرها الكأس بمليم فيورده موارد الهلاك في دار الجحيم . فليت أهل شمالي أفريقية يعملون هم وحكومتهم ببعض ما عملت به حكومة السويد في شمالي أوربا

فان قالوا في الاحصاء الاخير ان في نيويورك وسكانها ثلاثة ملايين ونصف ١٠٨٢٠ محلا لبيع المسكرات بالمفرق وفي باريز وسكانها مليونان ونصف ٣٠٠٠٠ وفي لندرة وسكانها أربعة ملايين ونصف ٥٨٦٠ محلا فانا أقول ان في هذه العاصمة الاسيفة أكثر من هذا العدد يبيع لاهلها الصبوح والغبوق من فاسد الالكحول فيفسد الاجسام والعقول

المآدب والاسراف[1]

في الشريعة السمحة آداب اجتماعية عالية لو عمل بها المسلمون لما لحقت غبارهم أمة في مكارم الاخلاق وتهذيب النفوس . فلو عمل المسلم بشريعته فاخرج الزكاة مثلا لما رأيت اليوم فقيراً ولا جائعاً ولا عرياناً ، ولو تجانف الكذب والتزوير وأكل المال بغير حق لما اشتغل القضاة طول النهار بفض الخصومات بين الناس

---

(١) نشرت في جريدة الشرق يوم ٦ ربيع الآخر ١٣٣٦